(١٤)
أمريكا وإسرائيل وحكاية الثعلب والفيل*

فى الثانى من الشهر الحالى - نوفمبر ١٩٨٤م فعل وولتر مونديل المرشح الديمقراطى للرياسة الأمريكية شيئا لا يوصف إلا بأنه مأساة أخلاقية وإنسانية ، فمهما بلغت حدة التنافس الانتخابى فلا يتصور الإنسان أن الأمر يصل إلى التسول وإذلال النفس ، فقد أخذ هذا الرجل زميلته المرشحة لنيابة الرياسة وهى المسز جيرالدين فيرارو إلى اجتماع انتخابى نظمه له رجال حملته الانتخابية فى الشارع الرابع عشر من مدينة نيويورك فى وسط حى مشهور بصناعة الملابس الجاهزة وتجارتها وهى صناعة يحتكرها اليهود هناك ، وجمعوا له فيه حوالى مائة وثلاثين ألف ناخب معظمهم من اليهود ، ووقف الرجل وقال دون حياء إنه لاحظ أن منافسه رونالد ريجان لا يؤيد اليهود وإسرائيل بما فيه الكفاية ، بل اتهمه بأنه يميل للعرب ويفضلهم على إسرائيل بدليل أنه باع ويبيع أسلحة متطورة للسعودية ويعتزم بيع أسلحة للأردن. أما هو فإن إخلاصه لليهود وإسرائيل لا يعرف حدودا وهو إذا فاز بالرياسة فإنه أولا - سيفتح الخزائن كلها لإسرائيل: خزائن المال وخزائن السلاح ، وثانيا سينظر فى وضع العلاقات الأمريكية الإسرائيلية فى صورة جديدة تؤمن إسرائيل وتضمن سلامتها إلى الأبد.

ورغم كل هذا التخاذل والتطامن من أمام إسرائيل ، فإن الألوف التى استمعت إلى خطاب مونديل - ومعظمها من اليهود - لم تستجب لهذا الذى قاله الرجل بالحماسة التى كانت تتوقع ، وبعد فراغه من خطبته دخل فى مناقشات مع بعض الحاضرين ومنهم محام يهودى كبير فى نيويورك. فقد قال هذا الرجل إنه لا يثق فى هذا العرض من جانب مونديل

---

* نشرت هذه المقالة فى ١١ نوفمبر ١٩٨٤م .

ولا يفهمه لأن اليهود جرت عادتهم بتأييد الديموقراطيين – وموندبل مرشحهم وقد سبق لبعض الرؤساء الأمريكيين الديموقراطيين ومنهم هارى ترومان وليندون جونسون أن قدموا لإسرائيل أكثر من ذلك الذى يعد به أضعاف المرات وأن اليهود كانوا ينتظرون منه أكثر مما قال.

وهذا الذى قاله وولتر مونديل عن ميل رونالد ريجان إلى العرب غير صحيح. فإن ريجان لا يقل تأييدًا لإسرائيل عن ترومان أو جونسون ، ولكنه يشعر الآن وقد ثبت مركزه فى بلاده أنه لم يعد فى حاجة إلى أن يؤكد ولائه لإسرائيل مرة بعد أخرى ، فهو يعطيها بلا حدود. وقد أكد أكثر من مرة أن المساعدات الأمريكية لإسرائيل ليست محددة بل مطلقة. فكل ما تراه إسرائيل لازما لها تأخذه دون انتظار موافقات اللجان المالية ولجان مجلس الشيوخ. وفى أواخر أكتوبر ١٩٨٤م. عندما تحدث بعض مندوبى الدول فى الأمم المتحدة أنهم سيتقدمون باقتراح لاستبعاد إسرائيل من تلك المنظمة. قال ريجان فى خطاب عام سمعناه فى الراديو فى حينه وأذاعته الصحف أنه إذا حدث وأخرجت إسرائيل من الأمم المتحدة. فإن الولايات المتحدة ستخرج معها. ولهذا الأمر سابقة واقعية. ففى خلال ١٩٨٢م كثر الهجوم على اليهود والنقد لسياساتهم وتصرفاتهم فى منظمة اليونسكو واتجهت إدارة تلك المنظمة إلى الاستغناء عن الكثيرين من موظفيها اليهود الذين وصلت نسبتهم فى وقت من الأوقات إلى ما يزيد على التسع ، وأصدرت المنظمة عددا من قرارات اللوم لإسرائيل بسبب عدوانها على حقوق الإنسان فى الأراضى المحتلة واعتدائها على التراث الثقافى والدينى لعرب الأراضى المحتلة ، وعندما حدث هذا أعلنت الولايات المتحدة أن منظمة اليونسكو إذا استمرت فى تلك السياسة المعادية لإسرائيل ، فإن أمريكا ستنسحب منها ، وبالفعل قررت الانسحاب مع إسرائيل فى آخر العام الحالى إذا لم تعدل المنظمة سياستها وصاحب هذا القرار هو رونالد ريجان.

وقد كان وولتر مونديل يتعاون فى حملته الانتخابية مع المرشح الزنجى وعضو مجلس الشيوخ جيسى جاكسون أملا فى كسب أصوات السود ،

ولكن جاكسون – مثله في ذلك مثل معظم السود في أمريكا لا يحب اليهود. وقد صدرت منه في حقهم عبارات اعتبرها اليهود جارحة لشعورهم. ولكن تصفيق السود لها وترحيبهم بها كان عظيما. فيريد وولتر مونديل الآن أن يباعد بين نفسه وبين جيسي جاكسون بعد أن أحس أن غالبية أصوات السود ستذهب إلى ريجان الجمهوري ، ومن المعروف أن غالبية السود الأمريكيين منذ نالوا حق الانتخاب يصوتون مع بطاقة الجمهوريين.

وقد حدث في شهر أبريل الماضي عندما كان جاري هارت عضو مجلس الشيوخ الديموقراطي عن دنفر – كولورادو ينافس وولتر مونديل في الحصول على ترشيح الديموقراطيين أن ذهب مونديل إلى كبار رؤساء الجالية اليهودية في نيويورك واجتمع بهم وقال لهم إن سجله السياسي يدل على أنه من أكبر المخلصين لليهود وإنه إذا فاز بالترشيح ثم بالانتخاب فسيعرف كيف يثبت ذلك بصورة لا تحتمل الشك ، فسارع جاري هارت واجتمع برؤساء جماعة بناي بريت اليهودية في نيويورك وأعلن لهم ولاءه المطلق لليهود وإسرائيل ، وكان هذا التسابق المخزي للحصول على تأييد اليهود مهانة للرجلين ، وقد كتبت الجارديان الإنجليزية تعليقا تساءلت فيه عن الداعي للسياسيين الأمريكيين إلى هذا التذلل بين أيدي اليهود.

□□□

وقد كنا في الماضي نتعجب من أمر هذه العلاقة العجيبة بين إسرائيل والولايات المتحدة فهي علاقة غير مفهومة. ولو كانت بين رجل وامرأة أو بين رجل ورجل لوصفناها بأنها مريبة ، ولكننا الآن لم نعد نتعجب فهي حقيقة من حقائق السياسة العالمية ولا معنى لمحاولة إفساد ما بين اليهود والأمريكيين. بل كان بعضنا يظن – سذاجة منا وعبطًا – أنه من الممكن توضيح حقائق الأمور في منطقتنا وشرحها على نحو يظهر للأمريكيين أن

سياستهم الإسرائيلية فى منطقتنا لا تخدم مصالح أمريكا ، وأنا شخصيا كنت عضوا فى وفد عربى ذهب إلى الولايات المتحدة لهذا الغرض وبعد اجتماعات ومحاضرات متعبة زرنا فيها نحو عشرين ولاية أمريكية أيقنت أن تلك محاولة ساذجة وعقيم لأننا نحن العرب لانفهم وضع اليهود فى أمريكا. وأذكر أننا فى أحد الاجتماعات فى مدينة يافالو فى ولاية نيويورك تحدانا مندوب جماعة البناى بريت وطالبنا بإثبات أن الغرب أحق بأرض فلسطين من الإسرائيليين ؛ وتصدى له رجل سورى كان معنا فلم يأت بشيء له معنى بل قال كلاما ساذجا عاطفيا كله تعجب واندهاش ، حتى نهض شاب أمريكى وأخذ الجانب العربى وأقحم مندوب بناى بريت وهنا انقلبت القاعة كلها علينا. وظهر محرضون يهود دعوا صراحة إلى طردنا من المكان وبالفعل أخرجونا لأن المبنى الذى كنا نتناقش فيه ملك جماعة البناى بريت ومعظم الحاضرين كان من أعضائها.

وتلك الجماعة من أقوى الجماعات الصهيونية فى الدنيا ومعنى اسمها «أبناء الميثاق» أو «العهد» ، والمراد بالميثاق هنا هو العهد الذى تزعم التوراة المتداولة بين اليهود اليوم أن الله سبحانه قد قطعه مع بنى إسرائيل ووعد فيه أن ينصرهم على غيرهم ويعطيهم أرض فلسطين وكل ما يستطيعون تملكه ويحتاجون إليه «عبر النهرين» أى بين النهرين والمراد هنا الفرات شرقا والنيل غربا. وكان المفروض أن ألقى محاضرة عامة فى كلية الآداب فى جامعة يافا لو فى اليوم التالى فذهبت فى الموعد واستقبلنى العميد وقال لى إنه يرى إلغاء المحاضرة لأن أحدا لن يحضر لأن الطلاب اليهود وزعوا منشورات دعوا فيها إلى مقاطعتها فرجوت العميد أن يأذن لى فى إلقائها وإن لم يحضر إلا طالب واحد فأجابنى إلى ما طلبت ، وعندما دخلت القاعة لم أجد طالبا واحدا فبلغ بى الغيظ أن قررت إلقاء المحاضرة فى القاعة الخالية وفعلت ذلك ولم يجد العميد ما يدعو إلى الحضور معى لتقديمى فلم يكن هناك جمهور ، وفى أثناء المحاضرة دخل صحفى والتقط

صورا وفى اليوم التالى ظهرت الصورة فى الجريدة الصباحية فى يافالوا وأنا أتكلم فى قاعة ليس فيها سامع واحد وكتبوا تحتها «الأستاذ الذى حاضر المقاعد الخيالية». وهذا مثل واحد من أمثال جبروت الصهيونيين وسلطانهم المطلق هناك.

□□□

ولا شك أن هذا التأييد الأمريكى المطلق يلحق بإسرائيل نفسها ضررا بليغا فهو يجعل الإسرائيليين يسرفون فى الصلف ويقدمون على ما يجاوز طاقاتهم الحقيقية. فهذا البلد الذى يعتبر فعلا من أصغر بلاد الدنيا مساحة وسكانا (٣ ملايين يسكنون ١٦ ألف كيلو متر مربع ويحتلون ٢٨ ألف كيلو متر) يملك قوة عسكرية تقارب ما تملكه دولة كبرى مثل فرنسا أو إيطاليا ولديها سلاح طيران ربما زاد على السلاح الجوى الفرنسى. وهذه القوة العسكرية الزائدة على الحد تضلل الإسرائيلى عن حقيقة نفسه فهو لا يعرف ماذا يصنع بها ، وقبل انتصارنا على إسرائيل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣م كانت سياسة إسرائيل مع العرب هى الضرب السريع المؤلم.

وكانوا يسمونها سياسة «الذراع الطويلة»، وفى أعقاب هزيمة ١٩٦٧م وهبوط القوة العربية إلى أدنى مستوى لها كانت ضرباتهم تصل فى بلادنا إلى نجع حمادى ، وفى يوم من الأيام ضربوا بقنابل الطائرات مدرسة ابتدائية فى بحر البقر وقتلوا مئات الأولاد ، ويومها تأسفت جولدا مايرا على أن القنابل لم تقضى على كل تلاميذ المدرسة ، وحتى بعد حرب ١٩٧٣ دفع هذا الغرور إسرائيل إلى تحطيم المفاعل الذرى العراقى وزعمت أنها تعطى العرب بذلك درسا حتى لا يفكروا فى دخول عصر الذرة ، وما فعلته إسرائيل فى صبره وشاتيلا مازال ماثلا فى الأذهان ، وسياستهم فى الأرض المحتلة سياسة رجل عصابات بيده مسدس يطلق منه على الناس دون حساب ، بل هناك فى إسرائيل امرأة مثل جويلا كوهين ورجل مثل كاهانى سوريا يطالبان بطرد العرب من إسرائيل والأراضى المحتلة كلها.

وهذه كلها سلوكيات جماعة مغرورة طاغية والذى يطغيها هو السلاح الأمريكى والمال الأمريكى.

□□□

ونسأل الآن: هل هذا من صالح إسرائيل؟. لكى نجيب عن هذا السؤال ينبغى أن نذكر أنه إذا كان السلاح الإسرائيلى أمريكيا ، فإن المقاتل نفسه إسرائيلى ، وملايين اليهود الثلاثة مضطرون بسبب هذا السلاح الأمريكى الكثير إلى إرهاق أنفسهم فوق الحد المأمون ليستعملوا هذا السلاح ، ومن ثلاثة ملايين إسرائيلى هناك دائما مليون مقاتل ومقاتلة فى حالة استنفار دائم ، والأراضى العربية المحتلة فيها حوالى ١٥٠ ألف جندى إسرائيلى بكامل سلاحهم فى حالة تأهب دائم ، وفى لبنان خمسون ألف جندى إسرائيلى فى حالة حرب فعلية ووراءهم على الحدود الشمالية وإلى عمق تل أبيب مائة ألف على قدم الحرب ، وحظائر الطائرات الحربية الإسرائيلية تحتل مئات الكيلومترات تحت الأرض يخدمها نحو خمسين ألف إسرائيلى معظمهم من النساء ، ورغم الصلح المصرى الإسرائيلى ، فإن إسرائيل ترصد على حدودها مع مصر أكثر من ١٥٠ ألف جندى بعتادهم فى حالة تأهب كامل ، وهؤلاء جميعا فى حالة عصبية ووضع نفسى غير إنسانى أو طبيعى ، وهذا يفسر لنا تمسكهم بنصف كيلو متر هو مساحة منطقة طابا وهى أرض مصرية ، ولكنهم يتمسكون بها تعبيرا عن روح العدوان وإصرارا منهم على الإهانة نحو بلد يقولون إنهم معه فى حالة سلام.

وهذا الوضع غير الطبيعى يجعل الإسرائيليين جميعا يعيشون تحت ضغط عصبى مرهق ، والنفقات الهائلة على الجنود والسلاح ترفع الأسعار فى إسرائيل بصورة لا مثيل لها فى الدنيا ، ففى الوقت الحالى تبلغ نسبة ارتفاع الأسعار ألفا فى المائة أكثر مما كانت عليه من عام واحد ، والشاقل

– وهو العملة الإسرائيلية فى هبوط شديد. لأن الوجبة المتوسطة فى أى مطعم تكلف الإنسان ما بين مائة ومائة وخمسين شاقلا ، وإزاء هذا التدهور فى سعر عملتهم يفضل الإسرائيليون الاحتفاظ بأموالهم دولارات فى مصارف أمريكية. وعندما احتل الإسرائيليون الضفة الغربية سنة ١٩٦٧م فرضوا على الفلسطينيين أن يغيروا الدينار الأردنى بشاقل واحد ، وهى سرقة ، لأن الدينار الأردنى يبدل اليوم بألف ومائتى شاقل.

وهذه الأوضاع غير الطبيعية تجعل الإسرائيلى – رغم القوة والسلاح أتعس إنسان فى المنطقة. فهو فى الواقع يعيش ولا يستريح أو يطمئن. ومن هنا فإن الكثيرين من عقلاء الإسرائيليين يرون أن الولايات المتحدة تستعبدهم خدمة لمصالحها بإعطائهم السلاح والمال. وقد قال صحفى إسرائيلى إن الولايات المتحدة تعطى المال والسلاح ونحن نعطى الأرواح ، والمعركة فى النهاية معركة الولايات المتحدة مع روسيا. ومن القائلين بهذا الرأى اللورد كارادون رئيس وفد بريطانيا السابق لدى الأمم المتحدة ، وهو من العارفين بقضايا الشرق الأوسط فقد خدم بلاده إنجلترا – سفيرا لها فى بعض البلاد العربية ، وهو اليوم أمين عام لمنظمة حلف الأطلسى ، فقد قال ذات مرة: إن الولايات المتحدة ليس من حقها أن تستخدم إسرائيل على هذه الصورة.

والحقيقة أننا لا ينبغى أن ننسى أبدا أن الأمريكيين ليسوا مغفلين. فهم يقدمون لإسرائيل هذا العون كله لكى يقوموا بجانب من المعركة الأمريكية مع روسيا ، والولايات المتحدة فى حالة حرب دائمة غير معلنة مع روسيا، وهذه الحرب ضرورة من ضرورات مركزها فى العالم ، فهى أكبر قوة عسكرية فى الدنيا ، وروسيا تتحداها وتعمل على انتزاع هذا المركز منها ، وكلتا الدولتين لا تستطيعان – ولا تريدان – أن تدخلا المعركة صراحة ، لأن هذا معناه هلاكهما معا – وربما نهاية الدنيا – وهما لهذا

تخوضان المعركة بواسطة كلاب حراسة ، وإسرائيل كلب الحراسة الأمريكى فى المنطقة فى مواجهة سوريا التى تقوم بنفس المهمة لروسيا ، وكانت إيران أيام الشاه كلب حراسة أمريكى ثان فى منطقتنا ، وبعد سقوط الشاه والتحول الحاسم لإيران تريد أمريكا من إسرائيل أن تقوم بدور الكلبين. وللولايات المتحدة كلب حراسة فى الشرق الأقصى وهو الفلبين ، ولكن فرناندو ماركوس جاوز الحد فى طغيانه بالتأييد والسلاح الأمريكى ، ومصلحة الولايات المتحدة تقتضى اليوم التخلى عن ماركوس كما تخلت عن الشاه ، ولو وجدت أمريكا من يقوم بدور فرناندو ماركوس لتخلت عنه اليوم لا غدا. ولكن الأمل قليل فى العثور على من يقوم للولايات المتحدة بتلك المهمة فى الفلبين بعد اغتيال بنيجنو اكينو - وكان هو الذى رشحته أمريكا للحلول محله ، ولهذا اغتيل قبل أن تطأ قدمه أرض بلاده. وبعض الإسرائيليين يخشون أن يكون هذا مصيرهم على يد الولايات المتحدة إذا هى تبينت أن إسرائيل استنفدت الأهداف المطلوبة منها ، وقد كتب أحد الإسرائيليين مرة يقول: إننا نعادى العرب وروسيا والدنيا كلها فى الشرق الأوسط بسبب الولايات المتحدة ، بينما الولايات المتحدة نفسها تصادق العرب وتخطب ودهم وتسعى للصلح مع روسيا ، إننا لا نريد السلاح الأمريكى أو المال الأمريكى ونفضل عليهما أن تتاح لنا الفرصة لكى نعيش فى سلام. وخير لنا ألف مرة أن نصل إلى سلام معقول مع العرب والمسلمين والروس والإفريقيين على أساس قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢. وهذا أفضل بكثير من بقاء احتلال الضفة وغزة والجولان وجنوب لبنان. إن كل أمم العالم تخوض الحرب لتحصل على السلام أما نحن فنخوض الحرب للوصول إلى مزيد من الحرب، فمتى نسعد بالسلام ، أو نرى أنه كتب على اليهود أن يظلوا فى خوف وشقاء حتى بعد أن أصبح لهم وطن. إن المتهوسين منا يحلمون باليوم الذى يقضون فيه على كل العرب ليأمنوا بصورة نهائية ، هذا مستحيل ، وحتى لو تغلبنا على كل العرب فهذه تكون بداية معركة أوسع مع كل المسلمين. وها هى ذى بالفعل معركتنا مع

المسلمين قد بدأت ، وطليعتها الحرب التى تعلنها إيران علينا. ثم إننا فى النهاية نحارب معركة أمريكا ، فإلى متى؟.

□□□

إذن فمن فى «النهاية» يستغل من؟.

أمريكا تستغل إسرائيل ، أم إسرائيل تستغل أمريكا. لقد كنا جميعا نحسب أن إسرائيل تستخدم الولايات المتحدة وتستغلها لتحقيق مآربها. ولكن واحدًا منا فهم حقيقة الوضع أكثر منا جميعا هو الرئيس السادات ، وبنى سياسته كلها على أن يقنع إسرائيل والولايات المتحدة معا بألا صلح لإحداهما فى خداع إحداهما الأخرى ، وأن الأفضل لهما جميعا أن يكونا فى سلام مع العرب ، وقد بدأ بحرب أكتوبر وكسبها ثم اتجه إلى المفاوضة للوصول إلى السلام رأسا ، وكانت مفاوضاته للسلام ثلاثية ، أى أنه أدخل الولايات المتحدة طرفا فيها. وقد أدرك هذه الحقيقة موسى ديان ، وكان قائد إسرائيل فى حرب ١٩٧٣م واكتشف فى النهاية أن أمريكا عندما سارعت بالمدد العسكرى لإسرائيل كانت فى الحقيقة تسعى لكسب معركة خاصة بها ، واكتشف كذلك أن أمريكا كانت تريد أن تستمر الحرب فترة أطول مما استمرت حتى تتأكد سيادتها فى المنطقة ولو هلك نصف الإسرائيليين. وعندما نتأمل تصرفات هنرى كيسنجر فى تلك المناسبة نرى بوضوح أنه كان يتمنى لو استطاع إفساد عملية السلام للعودة بنا إلى الحرب أو إلى اللاحرب واللاسلم ، وهذا كله فوته عليه السادات ، وكان من أمكر السياسيين وأذكاهم ، ودليل ذكائه أنه كان يعرف ما يريد ، والذى كان يريده هو أرض بلاده والعيش فى سلام ولا زيادة ، وقد تمكن من تحقيق ذلك.

ونعود فنسأل: هل إسرائيل ورقة فى يد اللاعبين الأمريكيين المتنافسين على الرياسة ، أو أن أمريكا أداة فى يد إسرائيل لتحقيق أطماعها فى

المنطقة؟. لقد تبينت إسرائيل أن أطماعها فى الأرض لا يمكن أن تستمر بلا نهاية ، واحتلالها لنصف لبنان أثبت لها أن كل زيادة فى الأرض المحتلة خسارة عليها. وسياسة القبض على الضفة بالمستوطنات والطرق أثبتت أنها فى النهاية وهم لا يؤدى إلى كسب حقيقى. وإنكار ملكية الأرض على الفلسطينيين الذين يسكنون عليها لا معنى له ، لأن صاحب الأرض الفعلى هو دائما الذى يعيش عليها ويفلحها ، ولما كان من المستحيل إبادة الفلسطينيين جميعا فلم يبق إلا حل واحد وهو العيش معهم فى سلام.

ولكن هل هذا الحل يرضى أمريكا؟.

بالطبع لا يرضيها ، وخاصة والدلائل تدل على أنها سائرة الآن فى طريق سياسة القوة والتفوق المالى والعسكرى على روسيا وبقية بلاد الدنيا ، وهى لهذا لا تريد أن تخرج إسرائيل من الميدان.

وكما أن أمريكا لا تريد – فى النهاية – أن يسود السلام هذه المنطقة إلا إذا كانت هى سيدتها وصاحبة الكلمة الأولى فيها ، فإن روسيا تريد لنفسها هذا الوضع أيضًا ، ومن هنا فإن روسيا لا تريد السلام لسوريا إلا إذا كان هذا السلام يخدم مصالحها أولا وقبل كل شىء.

وأسأل فى النهاية : هل ترانى أجبت عن الأسئلة التى تحير معظم العرب؟. ما الذى يجعل أمريكا تخضع هذا الخضوع لإسرائيل؟ وهل هى تخضع لإسرائيل حقا؟ أو هل هى فى الحقيقة تخدم نفسها بهذا المظهر من الخضوع؟. وأظن أننا نستطيع أن نعرف الجواب إذا وضعنا السؤال على النحو التالى: لو فرضنا أن إسرائيل ثعلب وأمريكا فيل ، فهل من الممكن – بالعقل كده – أن الثعلب يسيطر على الفيل.